شعر الخصومة والسجن
عند هدبة بن الخشرم

د . على إبراهيم أبو زيد

انبثق الدافع إلى هذه الدراسة من الإيمان بضرورة إماطة اللثام عن بعض شعراء العربية، الذين لم ينالوا حظهم من الدرس والتنقيب، وقد أفاضت البحوث والدراسات فى الاهتمام بطائفة بعينها من الأدباء، الشعراء والكتاب، بينما أغفلت هذه الدراسات مجموعة أخرى، ربما كانت فى الإشادة بأشعارهم، إفادات عظيمة للأدب العربى وتاريخه، وللعربية وأهلها.

وهُدبَةُ بن الخشرم العذرى شاعر إسلامى، لم تسلط الدراسات الضوء على شعره، ولم يحتل المكانة التى يحق له أن يحتلها، وسيرة هدبة والمحنة التى عايشها، والمأساة التى ختمت بها حياته فضلاً عن شعره ومضامينه، وصوره الفنية، كل ذلك جدير بالنظر فيه، ودرسه وتقييمه.

سيرة هدبة وشعر الخصومة:

يزخر تاريخ الأدب بحكايات تتسم بالجدة والطرافة، تعاونت عناصر التاريخ فى تشكيل أحداثها، وتدخل خيال الرواة الخصب فى نسج بعض وقائعها، وقد حازت هذه الحكايات على إعجاب الرواة، وحظيت بتقدير معاصريها، فسجلوها ورووها واستشهدوا ببعض أخبارها، وتناقلوها جيلاً بعد جيل، حتى صارت مصدرًا ثريًّا من مصادر التاريخ الأدبى، يمكن للباحث أن يستغلها استغلالا آخر غير دراسة أشعارها، وهو ذلك الجانب الإمتاعى الذى يتعلق بالحكاية وطريقة نسجها ومدى واقعيتها ودور الخيال فيها، كما أن هذه الحكايات تعطى الكثير من الملامح النفسية لأشخاص بأعيانهم، كما تعطى بعض الضوء على جوانب خاصة بالمجتمع العربى. ومن هذه القصص أو السير التى لم ينل أصحابها حظهم فى الدرس سيرة هدبة، ومما يدل على تقدير معاصريها لها ما يرويه الأصفهانى فى «الأغانى» نقلاً عن مصعب الزبيرى، حين قال:

«كنا بالمدينة أهل البيوتات إذا لم يكن عند أحدنا خبر هدبة وزياد وأشعارهما ازدريناه، وكنا نرفع من قدر أخبارهما وأشعارهما ونعجب بها»[1]. فمن هو هدبة؟ وما حكايته؟ ولم اهتم به

(١) أبو الفرج الأصفهانى - الأغانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الجزء الواحد والعشرون ص ٢٧٣.

أهل البيوتات بالمدينة، وأهل العلم والأدب والمشتغلون بالرواية؟ وما أبرز صور العطاء الفنى التى يمكن الوقوف عليها فى حكاية هدبة؟!.

صاحب الحكاية «هو هدبة بن خشرم بن كرز بن أبى حية بن الكاه، كما أثبت نسبه هذا الأصفهانى[١]، ويضيف عليه البلاذرى ابن عامر بن ثعلبة بن قرة بن حبيش بن عمرو بن ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن زيد أخى عذره بن زيد»[٢]. وهو من عذرة ولذلك يلقب بالعذرى[٣]. وأمه حية بيت أبى بكر بن أبى حية من أقاربه الأدنين، وكان قوم هدبة يسكنون بادية الحجاز، وقد انقسموا فريقين ذوى عصبيتين قويتين: بنى عامر بن عبد الله بن ذبيان ثم بنى رقاش بن قره بن حبيش بن عبد الله بن ذبيان، وقد كانت بين الفريقين حروب ومنازعات[٤]. وقد تناولت معاجم اللغة لفظ هدبة وكلمة الخشرم بالتفسير كما أشارت هذه المعاجم إلى اسم الشاعر هدبة وإلى بعض أشعاره وإلى حكايته.

أما عن شاعرية هدبة فقد أشادت بها بعض مصادر الأدب، قال عنه الأصفهانى: «وهدبة شاعر فصيح متقدم من بادية الحجاز وكان شاعرًا راوية، كان يروى للحطيئة، والحطيئة يروى لكعب بن زهير، وكعبروى لأبيه زهير، وكان جميل راوية هدبة، وكثير راوية جميل، ولذلك قيل: إن آخر فحل اجتمعت له الرواية إلى الشعر كُثيِّر»[٥]. ويصفه المرزبانى فى معجم الشعراء بأنه شاعر مُفلق كثير الأمثال فى شعره[٦]، ويصفه التنوخى فى الفرج بعد الشدة بأنه «شاعر فصيح، مرتجل، راوية»[٧] ويأخذ عنه الزركلى صاحب الأعلام،[٨] ويعيد الصفات ذاتها. وقد ندرت الدراسات الحديثة حول هدبة وشعره وممن أشار إلى شعر هدبة، د. عمر فروخ فى تراجمه الأدبية، ووصفه بأنه «شاعر مطيل له قصيد ورجز، يرتجل بيسر، وأسلوبه بدوى، وفى شعره شىء من الضعف والغموض، إلى جانب قدر من الصناعة اللفظية، ولما دخل هدبة السجن كثر شعره وجاد، وأما فنونه فهى الهجاء والحماسة والغزل والحكمة»[٩].

---

(١) الأغانى - ص ٢١١ - ص ٢٥٤.

(٢) البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر) - أنساب الأشراف - الجزء الرابع - القسم الثانى - ص ١٣٤.

(٣) ابن قتيبة - الشعر والشعراء ص - ص ٦٩٥

(٤) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٤ - الجزء الأول - ص ٣٩٦.

(٥) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٥.

(٦) المرزبانى - معجم الشعراء - ص ٤٨٣.

(٧) التنوخى - الفرج بعد الشده جـ ٥ - ص ٨٩.

(٨) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٣٩٧.

(٩) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى - جـ ١ ص ٣٩٧.

ويجمع د. يحيى الجبورى شعر هدبة ويقدم له، ويصفه بأنه «من شعراء الصدر الأول، وأحد الشعراء الموصوفين بالجودة والإبداع، من مدرسة زهير وأوس بن حجر التى عرفت بتحسين الشعر وتجويده»[1].

وقد اتفقت مصادر الأدب والتاريخ على حكاية هدبة وعلى خبر مقتله، وعلى تفاصيل تلك الأزمة التى أثارت الخصومة بينه وبين ابن عمه وأدت إلى حبسه ثم قتله. ومن العجيب أن هدبة لم يُعرف فى مصادر الأدب بغير حادثته، وبغير شعره الذى قاله فى حبسه وساعة قتله، وكأن أزمة هدبة هى التى جعلت منه شاعرًا، وكأن الخصومة التى دارت هى التى فجرت الشعر على لسانه، حتى الأخبار التى تروى عنه لم نجد فيها شيئًا يبعد عن خصومته وعن حكاية حبسه وقتله - فقد ضاعت أشعار هدبة التى قالها قبل أزمته، وغلبت حكايته وعناصرها المؤثرة على بقية أخباره، ولعل قوة الأزمة وحدتها هى التى صبغت شعر هدبة بلون جذب الرواة والنقاد إليه، وربما كان شعر هدبة جديدًا فى وقته، حين كان يتناول أمورًا لم يكن من المألوف النظم فيها بتلك الجودة. وكل هذه أمور قد تفسر لنا غياب أخبار هدبة وأشعار هدبة بعيدًا عن أزمته وحكاية حبسه ومقتله. ومن الأمور الملفتة للنظر أن الاتفاق كان سائدًا بين هذه المصادر على سبب الأزمة وعلى مجرى أحداثها، وأن الاختلاف بينها لم يكن جوهريًا، بل كان بسيطًا لا يتعدى بعض التفاصيل غير الدقيقة التى لا تغير جوهر الحدث الأصلى المشكل للأزمة، كما أن الأقاصيص أو تلفيق الرواة لم يحظ بالنصيب الذى كان يحظى به فى مثل هذه الحكايات المفجعة، مع وجوده ولكنه وجود محدود. وقد اعتمدت المصادر الأدبية مع قلتها فى سرد تفاصيل حكاية هدبة على رواية الأصفهانى فى الأغانى، وهى رواية موثقة كعادةأبى الفرج فى نقل أخباره ويتخللها الشعر الذى قيل فى بعض المواقف الخاصة بتفاصيل حكاية هدبة.

ويذكر صاحب نوادر المخطوطات[2]، وصاحب الشعر والشعراء[3]، وصاحب أنساب الأشراف[4]، ما ذكره الأصفهانى فى هذا الشأن، فى حين تغفل هذه المصادر تفاخر زيادة الذى كان سببا فى إثارة الضغائن، وترى هذه المصادر أن سبب القتال «أنهما أقبلا من الشام فى ناس من قومهما، فقالوا: من يسوق بنا؟ فقال زيادة أنا أسوق بكم، فنزل فساق بهم ساعة، ثم ارتجز فقال معرضًا بأخت هدبة، وكانا يتعاقبان السوق بالإبل، وكان مع هدبة أخته فاطمة:

---

(١) د. يحيى الجبورى - شعر هدبة بن الخشرم العذرى - دار القلم، الكويت - الثانية ١٩٨٦ ص ٥.

(٢) ابن حبيب البغدادى - كتاب أسماء المغتالين - الأشراف فى الجاهلية والإسلامية وأسماء من قتل من الشعراء.

(٣) ابن قتيبة - الشعر والشعراء: ت: أحمد شاكر - دار التراث العربى للطباعة، جـ ٢ ص ٦٩٥ - ٦٩٩.

(٤) البلاذرى - جـ ٤ ص ١٣٤ - ١٣٦.

عـوجى علينا واربعى يـا فـاطـمـا ما دون أن يـرى البعـير قـائـمـا
ألا تـرين الـدمـع منى سـاحبـا حـذار حـذار منـك لن تـلاثـمـا

فغضب هدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته، فنزل فرجز بأخت زيادة وكانت تدعى أم حازم، وقال آخرون: أم القاسم، فقال هدبة:

لـقـد أرانى والـغـلام الحـازمـا ترجى المطى ضمـرا سواهمـا

إلى آخر الأبيات: «فشتمه زيادة وشتمه هدبة وتسابا طويلاً، فصاح بهما القوم، أركبا فإنا قوم حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر فوعظوهما، حتى أمسك كل واحد منهما على ما فى نفسه، وهدبة أشدهم حنقا، لأنه رأى أن زيادة قد ضايقه، إذ رجز بأخته وهى تسمع قوله، ورجز هو بأخته وهى غائبة لا تسمع قوله، فمضيا ولم يتجاوزا بكلمة، حتى قضيا حجهما، ورجعا إلى عشيرتيهما» وتستمر المناوشات الكلامية بين الطرفين، مصاغة فى قوالب الرجز، حتى أن هذه الخصومة قد نشطت شعر الرجز بين هدبة وقومه وبين زيادة وأنصاره، وكأنها نقائض بينهما.

ومن أطول القصائد التى قيلت فى هذه الحرب الكلامية قصيدة لزيادة خصيم هدبة وأولها:

أراك خليـلاً قـد عـزمت التجنبـا وقـطّعت حاجـات الفؤاد فأصحبـا[1]

وهى قصيدة طويلة مكتملة من حيث جوانب البناء الفنى، وتتضح فيها روح التفاخر العربى، ونبرة الاستعلاء على الغير، ويعلو فيها صوت التحدى، وكأنه يوجه كلامه إلى هدبة ابن عمه، مما أثار حفيظته، وقد بدأ زيادة قصيدته بالغزل وحديث المرأة، ثم افتخر بنفسه فخرًا انتقل بعده إلى الفخر الجمعى بقومه وعشيرته، ومما جاء فى فخره قوله:

فـما إن ترى فى النـاس أما كـأمنا ولا كـأبينـا حـتى تنسبـه أبـا
ملكنـا ولم نملك وقـدنـا ولم نقـد كـأن لنا حقًّا على النـاس تـرتبـا

وتصل القصيدة إلى هدبة، فيجيب عليها بقصيدة أخرى من نظمه، تدخل بها فى باب النقائض، حيث حافظ على قالب القصيدة الأولى، قصيدة زيادة، وعلى بحرها وقافيتها وروّيها، كما حول فخر زيادة إلى هجاء، وافتخر هدبة على زيادة واستعلى عليه، والتزم فى قصيدته البناء الفنى المحكم الذى يبعد به عن الارتجال والبديهة والرجز، فجاءت من أشعاره المعدة التى تفرغ الشاعر لنظمها، وقد بدأها بقوله:

تـذكـر شجـوا من أميمـة منصبـا تليـدا ومنتابـا من الشوق محلبـا[2]
تـذكـر حبًّـا كـان فى ميعـة الصبـا ووجـدًا بهـا بعـد المشيب معتبـا

(١) القصيدة كاملة ف فى الأغانى جـ ٢١ ص ٢٦٠، ص ٢٦١
(٢) القصيدة كاملة فى مقر هدبة - ص - ٦٤ - ص ٧٣

ويكتفى الأصفهانى بأبيات مختاره يرد بها هدبة على زيادة بينما تصل القصيدة فى ديوان هدبة نقلاً عن منتهى الطلب إلى أربعة وخمسين بيتًا.

وتستمر المعركة بين هدبة وزيادة، تصورّها قصائدهما، يفخر أحدهما ويرد عليه الآخر يفحمه ويفند مزاعمه، حتى تصل المأساة إلى النهاية الدرامية المفجعة، فلم يزل هدبة يطلب غرة زيادة حتى أصابها فقتله، وتنحى مخافة السلطان وكان على المدينة يومئذ سعيد بن العاص، فأرسل إلى عم هدبة وأهله فحبسهم بالمدينة، فلما بلغ هدبة ذلك أقبل حتى أمكن من نفسه وتخليص عمه وأهله، فلم يزل محبوسًا حتى شخص عبد الرحمن بن زيد أخو زيادة إلى معاوية، فأورد كتابه إلى سعيد بأن يقيد منه إذا قامت البينة، فأقامها. وتتدخل عذره، ويتصل رجالها وأكابرها بعبد الرحمن بن زيد أخو زيادة القتيل وتسأله قبول الدية، ويرفض عبد الرحمن قبولها، وينظم عبد الرحمن هو الآخر شعرًا، يعجب به ابن سريج، فيغنيه، ويختاره الأصفهانى ضمن مختارات أصواته، ومنه:

أنختم علينا كلكل الحرب مرة ... فنحن منيخوها عليكم بكلكل
كريم أصابته ديات كثيرة ... فلم يدر حتى حين من كل مدخل

ويذكر أن سعيد بن العاصى كره الحكم بينها، فحملها إلى معاوية، فنظر فى القصة ثم ردها إلى سعيد، «وأما غيره فيذكر أن سعيدًا هو الذى حكم بينها من غير أن يحملها إلى معاوية»[1]. وعندما اجتمع الطرفان المتخاصمان، فى حضرة معاوية بدأ عبد الرحمن أخو زيادة عرض قضية أخيه القتيل أمام معاوية قائلا«يا أمير المؤمنين: أشكو إليك مظلمتى، وما دفعت إليه، وجرى على وعلى أهلى وقربای، وقتل أخى زيادة، وترويع نسوتى، فقال له معاوية يا هدبة قل: فقال إن هذا رجل شجاعة، فإن شئت أن أقص عليك قصتنا كلامًا أو شعرًا فعلت، قال. لا بل شعرًا، فقال هدبه ارتجالاً:

ألا يالقومى للنوائب والدهر ... وللمرء يردى نفسه وهو لايدرى

إلى أن قال:

رمينا فرامينا فصادف رمينا ... منايا رجال فى كتاب وفى قدر
فإن تك فى أموالنا لم نضق بها ... ذَرعًا، وإن صبر فنصبر للصبر[2]

ويعتبر هدبة بقتل زيادة، ويطلب دفع الدية، وإلا فليس أمامه إلا الصبر على المصير المحتوم. ويقول له معاوية: «أراك قد أقررت بقتل صاحبهم، ثم يقول معاوية لعبد الرحمن هل لزيادة

(١) الأغانى - جـ ٢١ - ص ٢٦٣.
(٢) الاغانى - جـ ٢١ - ص ٢٦٤

ولد؟ قال: نعم المسوَّر، وهو غلام صغير لم يبلغ، وأنا عمه وولى دم أبيه فقال: إنك لا تؤمن على أخذ الديّة، أو قتل الرجل بغير حق، والمسّور أحق بدم أبيه فردّه إلى المدينة، فحبس ثلاث سنين حتى بلغ المسور»[1]. ويرسل هدبة إلى عبد الرحمن وساطة أخرى، بعد أن بلغ المسور، فيغضب عبد الرحمن، ويقول شعرًا جاء فيه:

سأكذب أقوامًا يقولون: إننى سآخذ مالاً من دم أنا ثائره

ويصل الخبر إلى هدبة، فيقول: الآن آيست منه، ويذهب عبد الرحمن بالمسور، وقد بلغ إلى والى المدينة، وهو سعيد بن العاص، وقيل مروان بن الحكم. وتظهر بعض اغعناصر الدرامية فى خاتمة حكاية هدبة، تصور شجاعة هدبة، وتصور وفاء زوجته وصبرها، ويظل هدبة شاعرًا حتى آخر لحظاته، فقد قال شعرًا فى الخصومة، وقال شعرًا فى السجن، وقال شعرًا لحظة مقتلة.

وتضطرب الأخبار فيمن قتل هدبة، هل هو عبد الرحمن أخو القتيل؟ أم المسور ابن القتيل، وتروى الحكاية أخبارًا لا يصدقها عقل أو منطق، عندما يقول هدة قبيل مقتله: «بلغنى أن التلقتيل يعقل ساعة بعد سقوط رأسه، فإن عقلت فإنى قابض رجلى وباسطها ثلاثًا، ففعل ذلك حين قتل». وقال قبل أن يقتل:

إن تقتلونى فى الحدي فإننى قتلت أخاكم مطلقًا لم يُقَيَّد

ويقول عبد الرحمن، والله لا أقتله إلا مطلقًا من وثاقه، فأطلق له، فقام إليه وهز سيفه، ثم قال:

قد علمت نفسى وأنت تعلمه لأقتلن اليوم من لا أرحمه

ثم قتله[2]. وقيل: «إن الذى تولى قتله ابنه المسور، دفع إليه عمه السيف وقال له: قم فاقتل قاتل أبيك، فقام، فضربه ضربتين قتله فيهما»[3]. ويذكر ابن قتيبة قول هدبة «تفقدونى إذا ضربت عنقى، فإنى سأقبض يدى وأبسطها، فتفقدوه فرأوه يفعل ذلك»[4]. وينفى المبَرد هذه الرواية، ويقول عنها «إنه حديث باطل موضوع»[5]. وقد اتفقت معظم المصادر فى الخطوط العريضة لحكاية هدبة، واختلفت فى تفاصيلها، وهو اختلاف طبيعى، ليس من شأنه التغيير فى المقدمات أو النتائج، فى قتل زيادة، وأن أصحاب الدم أخذوا بثأرهم من هدبة وقتلوه، بعد أن

---

(١) الاغانى - جـ ٢١ - ص ٢٦٤.
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٧٢.
(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٧٢
(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ - ص ٦٩٥.
(٥) المبرد: الكامل فى اللغة والأدب جـ ١ ص ١١.

بقى فى الحبس سنوات حتى بلغ ابن زيادة رشده. ويمكن أن يقف دارسو سيرة هدبة على عدة استنتاجات، تجعل من قراءة خبر هدبة درسًا نافعا من دروس الأدب التى تجمع بين الإقناع والإمتاع ومنها:

إن الحكاية فى إطارها الدرامى حكاية مفجعة محزنة مؤثرة، يمكن استغلالها روائيًا أو مسرحيًا، فالفكرة ناضجة تامة مستوفية شروط الكتابة، مما يدل على أن أخبار الأدباء تزخر بالكثير من هذه الحكايات التى تعد مادة دسمة للدراما العربية، تؤكد ثراء المصدر فى العصور البكر، ومنها خبر طرفة ومقتله، والنابغة وهروبه، ومن قبلها خبر امرئ القيس واغتياله، وعلى بن الجهم وسجنه، وديك الجن وقتله جارية زوجته وظهور البراءة بعد ذلك، ونهاية المتنبى ونهاية ابن أبى الشخباء إلى آخر تلك الحكايات. والعقدة فى حكاية هدبة ظاهرة، وهى انتظار هدبة القتل، وأبطال الرواية هدبة وزيادة والثانويون سعيد بن العاص، وعبد الرحمن، والمسور، وغيرهم، والمكان هو السجن وساحة القتل، والزمان محدد تاريخيًا، والأحداث ساخنة متحركة غير تافهة أو سطحية، كل ذلك يجعل من حكاية هدبة قصة مكتملة فنيًا ودراميًا.

الأمر الثانى اختلاف بعض روايات حكاية هدبة، وهذا أمر طبيعى، لاغرابة فيه، فقد جذبت الحكاية أنظار الرواة، فحفظوها ورووها واختلف الرواة فى بعض تفاصيلها، ولم يكن فى جوهرها، ولكن الراوى تدخل بمزاجه الخاص وخياله الرحب، فأضاف بعض الجوانب التى تزيد من شوق المستمع، وتؤكد التأثر بالحديث المفجع. وهى تفاصيل تدور حول تأكيد عدة محاور فكرية أهمها، شجاعة هدبة وصبره، وجلده ساعة قتله، ووفاءزوجته وإخلاصها، وقد ظهر عمل القصاص واضحًا فى اختلاف الحوادث، وتصوير المواقف مثلما دار حول سعيد بن العفص أو معاوية وأيهما حكم فى أمر هدبة، وحول من قتل هدبة؟ هل هو عبد الرحمن أم المسور؟ كما يظهر تلفيق القصاص فى خبر زقاق ابن واقف وسوق المدينة، فقد ظن أبوالفرج أنه خبر مصنوع «فليس بالمدينة زقاق يعرف بزقاق ابن واقف»[1] كما يبدو الوضع أيضًا فى أمر زوجة هدبة ووفائها أو غدرها وزواجها بعده، كذلك الانتحال واضح فى خبر حُبّى المدينة، كما لا يطمئن القارئ إلى ذلك الخبر الذى يرويه أبو المغيرة محمد بن إسحق[2]، وفيه: «بعث هدبة إلى عائشة زوج النبى ﷺ يقول لها: استغفرى لى، فقالت إن قتلت أستغفر لك»[3]. كما يبدو - أيضًا - عمل القصاص فى ذلك الخبر الذى روى عن هدبة عند قتله، وهو أن القتيل يعقل ساعة بعد قتله، وأنه سوف يمد يديه ويقبضها ثلاثًا، وفى رواية أخرى سوف يضرب بقدمه

---

(١) الأغانى - جـ ٢١ - ص ٢٦٨.

(٢) ومن الرواة أبو مصعب الزبيرى المنكدر بن محمد بن المنكدر

(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٦٨.

الأرض ثلاثًا، وربما قال هدبة هذا القول، ولكن الأخبار التى تؤكد أنه فعل ذلك بعد سقوط رأسه أخبار موضوعة وملفقة.. لقد لحقت بهذه الحكايات أخرى فرعية، قد يطلق عليها حكايات إضافية، وكأن حكاية هدية لم تمت بموته، بل ظل الرواة يضيفون إليها إضافات فرعية، ومنها غدر الزوجة بعهدها الذى كانت قد قطعته على نفسها بعد قتله، فقد روى النوفلى عن أبيه قوله: «إنى لفى بلادنا يومًا، فإذا أنا بامرأة تمشى أمامى وهى مدبرة، ولها خلق عجيب من عجز وهيئة وتمام جسم، وكمال قامة، فإذا صبيان قد اكتنفاها يمشيان، قد ترعرعا. فتقدمتها، والتفت إليها، فإذا هى أقبح منظر، وإذا هى مجدوعة الأنف، مقطوعة الشفتين، فسألت عنها، فقيل لى: هذه امرأة هدبة، تزوجت بعده رجلًا، فأولدها هذين الصبيين [1]. فأين ما روى عن وفائها وجدع أنفها حتى أن صاحب تزيين الأشواق فى أخبار العشاق يروى «أنها قطعت أذنها أيضًا»[2]. ثم كيف تتزوج بعد ذلك كله وتنجب أولادًا وكأنها لم تعد رمزًا للوفاء، بل أضحت قدوة فى الغدر.

ويفْرد صاحب أخبار العشاق فصلا فيمن تعاهدوا على عدم الفراق، ثم نكث أحدهما عهد الآخر، ومنهم غير هدبة وزوجه «صخر بن عمرو أخو الخنساء، وقد عاهد سلمى على ألا تتزوج بعده وهو كذلك عاهدها، فكان يقول إذا نظر إليها، لا أكره الموت إلا أنه يفرق بينى وبين هذه ثم مات فتزوجت سلمى بعده»[3]. وينحصر اهتمام دارس الأدب فى أشعار هدبة، ولولا تلك الأشعار ما كان لحكاية هدبة أثر فى تاريخ الأدب العربى، فما أكثر الحكايات التى رويت عن العرب! وما أكثر ما بها من طرائف، تدخل فى إطارات أدبية أخرى، تتعلق بالقصة أو الخبر أو الرواية أو الموعظة والحكمة، ولكن خطورة الحكاية الأدبية تكمن فى ارتباطها ببعض شعراء العربية خاصة عندما تزين الأشعار أخبارها.

* * *

شعر هدبة فى السجن وساعة القتل:

قضى هدبة فى حبسه مدة غير قليلة، اختلف الرواة فى تحديدها، بين ثلاث سنوات أو خمس أو سبع وقيل ثمان، وفى الأغانى قول معاوية لعبد الرحمن أخو زيادة القتيل «المسور أحق بدم أبيه، فرد هدبة إلى المدينة فحبس ثلاث سنين حتى بلغ المسور»[1]. ويعتمد داود الأنطاكى صاحب تزيين الأسواق فى أخبار العشاق رواية الأغانى، فيذكر قول معاوية عن هدبة: «ردوه

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٧٠، البغدادى - خزانة الأب ص ٨٦.

(٢) داود الأنطاكى - تزيين الأسواق فى أخبار العشاق - دار مكتبة الهلال: بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦ جـ ١ ص ٣١٩ إلى ص ٣٥٠.

(٣) الأغانى جـ ٢١ - ص ٢٦٤.

حتى يبلغ المسور، فحبس ثلاث سنين»[1]. كذلك يقول البغدادى فى خزانة الأدب، فحبس ثلاث سنين حتى بلغ المسور»[2]. وقال الزركلى صاحب الأعلام «إن هدبة بقى محبوسًا ثلاث سنوات»[3]. وأما أبو تمام فى حماسته فيذكر «إن هدبة قال فى السجن أشعارًا كثيرة منها ما روى عنه، ومنها ما ذهب، فمكث هدبة فى السجن ما شاء الله أن يمكث، حتى أدرك المسور بن زيادة، وذلك خمس سنين أو ست سنين»[4]. وأما ابن قتيبة فلم يحدد لحبس هدبة زمنًا، واكتفى بقوله: «فلم يزل محبوسًا حتى شخص عبد الرحمن بن زيد، أخو زيادة إلى معاوية»[5]. وكذلك قال البلاذرى فى أنساب الأشراف[6]، وصاحب نوادر المخطوطات، الذى قال: «فحبس هدبة حتى أدرك الغلام[7]. ويذكر ابن قيّم الجوزية فى أخبار النساء أن حبس هدبة «استمر سبع سنين ينتظر به احتلام المسور بن زياد»[8]. ويردد د. الجبورى صاحب شعر هدبة رأى أبى تمام فى تحديد مدة حبس هدبة حين يقول «فمكث هدبة فى السجن ما شاء الله أن يمكث حتى أدرك المسور»[9]ويذكر د. عمر فروخ أن هدبة قضى فى السجن ثلاث سنوات، وقيل خمس سنين أو ستًا، ولعله بقى فى السجن إلى أيام مروان بن الحكم فى ولايته الثانية على المدينة ٥٦ - ٥٧ هـ»[10]. ولا نعلم على أى المصادر اعتمد صاحب شعر السجن والأسر[11]، حين ذكر أن هدبة حبس ثمان سنين حتى بلغ ولى المقتول الحلم. والمدة التى قضاها هدبة فى سجنه ولعلها ثلاث سنوات حتى يبلغ المسو حلمه، وهى أقل المدد تحديدًا ليست بالقصيرة فضلا عن الجو النفسى وهو جو الحبس الذى قضى فيه الشاعر مدة حبسه مما جعل شعره فى تلك الفترة، هو الشعر الذى احتفظ به، وحفظ وأنشد وروى، فقد روى صاحب الأغانى «كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه وكان أهل البيوتات بالمدينة يحتفون بشعره وبحكايته.»

ولقد كان للسجن فى شعر هدبة شأن عظيم، ولعل تلك المحنة التى لحقت بهدبة وذلك المصير المحتوم الذى ينتظره، وتأرجح عواطفه بين الأمل والرجاء واليأس والقنوط، كل هذا جعل من

(١) تزيين الأسواق - ٣١٩.
(٢) خزانة الأدب - ص ٨٤ (٣) الاعلام جـ ٩ ص ٦٩.
(٤) الحماسة - ١٢
(٥) الشعر والشعراء - ٦٩٦.
(٦) الأنساب - ١٣٥.
(٧) محمد بن حبيب - ٢٦٠
(٨) أشعار النساء - ١١٧.
(٩) شعر هدبة - ١٦.
(١٠) تاريخ الأدب العربى جـ ١ - ٣٩٧.
(١١) شعر الأسر والسجن - ٤٤٥.

شعر هدبة فى الحبس شعرًا جديرًا بالدرس والتحليل. ولما كان الحبس وحياة الشاعر فى القيد مع السجان والظلمات، انتظارًا للمصير المحتوم، وتأرجح عاطفة الشاعر بين الأمل واليأس، والتظاهر بالصبر حتى لا يشمت العدو، هذه كلها أبرز مضامين شعر هدبة فى حبسه، وقد ترتب عليها وجود ألفاظ تطابق هذه المضامين، أو تؤدى هذه المعانى، حتى تدل المفردات على ما تحويه الفكرة وذلك فضلًا عن الصور التى نبعت من هذه الألفاظ والموسيقى التى تضىء الجو النفسى الذى يجعل الإحساس بالمعنى إحساسًا إيحائيًا جماليًا، ينبعث عن الإقناع الفكرى والإمتاع الجمالى. ويمكن لقارئ شعر هدبة فى الحبس أن يقف على أبرز مضامين هذا الشعر ومنها:

- وصف السجن والسجان والقيود والشرفات العالية.
- تصوير الأمل فى انفراج الأزمة والخروج إلى الحياة الحرة الكريمة.
- حديث الشاعر عن المرأة وذكرياته مع زوجته وتصوير حنينه إلى الأهل.
- الخوف من شماتة الاعداء وشكوى الدهر وشعر الحكمة والرؤية الخاصة للحياة.
- الفخر بالنفس والاستعلاء على الحدث والتغنى بالصبر والإيمان بقضاء الله وقدره.
- الاستغفار من الذنب، والتوبة إلى الله، وتوقع الموت والاستعداد للقاء الله.
- شعر هدبة ساعة خروجه إلى ساحة القتل.

وكل هذه المضامين التى احتوى عليها شعر هدبة فى الحبس وساعة القتل، ترسم صورة جليلة لشخصية الشاعر هدبة بن خشرم العذرى.

* * *

وصف السجن والسجان والقيد:

هناك سمة بارزة من سمات الشعراء المحبوسين، لأى سبب غير اللصوصية والصعلكة، وتكاد هذه السمة أن تكون عامة يشترك فيها جميع هذه الطوائف من الشعراء، ما داموا قد أدخلوا الحبس، وعاشوا فيه زمنًا طويلًا مع القيد والسجان فى الظلمات والضيق. وقد يختلف شعر هدبة مع شعر هذه الطوائف من الشعراء المحبوسين فى سمات فنية كثيرة، وقد يتفق معهم فى بعض هذه المضامين ومنها وصف السجن والقيد.

وهذا الشعر الذى يصدر فى الحبس يؤكد عدة اعتبارات فنية خاصة منها: أن الشعر يخلد التجربة ويجسدها نظما، ويجعل الحركات والأوقات والأشياء التى يصورها الشعر ترتفع من صفة العبور والزوال إلى صفة البقاء والدوام ولو بصورة شكلية. ولولا الشعر والفن، لبادت وتلاشت،

«فالفن يخلد ولو نسبيا ما يصفه ويصوره من الأفعال والحركات والمشاعر والذكريات»[1]. وإن الشعر الذى يصور السجون والقيود إنما يصور مشاعر وتجارب إنسانية مريرة، ويصور جوانب من حياة بعض الناس، ويصف أحوالهم ونظم مجتمعاتهم، ويسجل إحساساتهم ويصور متاعبهم «الأمر الذى يشكل صفحة جديدة من صفحات لم تكن مألوفة من قبل، إنه تطور لموضوع لم يعالجه الشعر من قبل»[2].

ويؤدى الشعر فى الحبس وظيفة للشاعر المحبوس، تكاد تنطبق على تلك التى تؤديها أغانى العمال فى البناء أو أغانى الصيادين فى البحر، حين تعمل الأغنية على تخفيف وطأة المعاناة، وتخفيف حدة قسوة العمل وخشونته، والتقليل من الإحساس بالغربة ومرارتها، فأدى شعر الحبس مهمة تخفيف إحساس الشاعر بمرارة القيد وقسوة ظلمات السجن وجفوة معاملة السجان، واستطاع الشاعر المحبوس أن يصف الحبس والقيد والسجان شعرًا، فخفف من بعض همومه وأشجانه المكبوتة. ويؤدى شعر الحبس كذلك دورًا اجتماعيًا غير دوره الفنى، ففى تصوير السجون وذكر أسمائها ومواقعها ومواضعها إفادة تعود على المؤرخ والباحث الاجتماعى، حين يقفا على نظام الدولة فى التعامل مع الخارجين على القانون، كما يصور الشعر قدرة الحكومة الأموية على السيطرة على العابثين، فلم يفلت من سطوتها خارج أو مارق أو قاتل. وقد أفاد معجم البلدان لياقوت وغيره من المعاجم فى تفسير أسماء بعض السجون التى وردت فى شعر هدبة، وفى شعره أمثاله من المحبوسين، فحدد المعجم المكان والوقت، وذكر بعضًا من الشعر وطرفًا من أخبار المحبوسين. ومن أشهر السجون التى ورد ذكرها فى شعر المحبوسين، سجن «كابل» وسجن «دوار» وهو سجن باليمامة، وقد قال فيه شعراء محبوسون شعرًا، ومنهم مجدر ابن معاوية العلكى، وكذلك أبوالنشناش الميمى، ويعلى الأحوال اليشكرى، والخطيم العكلى.

وقد احتل وصف السجن مكانًا فى النثر، وأورد الراغب الأصفهانى صاحب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء[3] أقوالاً لبعض من حُبس من الكُتاب، فقد كتب بعضهم على باب السجن: «هذه قبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء وأمر بحبس ابن أبى علقمة فى دعوى، فقال دعنى آتى البيت لحاجة، فلم يترك فتمثل بقوله تعالى ﴿فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ وسمع الجماز محبوسًا يقول: اللهم احفظنى، فقال: قل اللهم ضيعنى، فإن حفظه لك أن يبقيك فيه، ودخل أحدهم السجن، فقال ما سلككم فى سقر، قالوا:

---

(١) د. عبد الكريم الباقى - دراسات فنية فى الأدب العربى - الأولى ١٩٦٣م، ص ٢٢٥.

(٢) د. مصطفى الشكعة - الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية - كتاب الشعر - دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤.

(٣) الراغب - محاضرات الأدباء - المجلد الثانى - الجزء الثالث - ص ١٩٤.

م نك من المصلين»[1]. كذلك رسمت بعض المصادر صورة ية للمحبوسين فى سجونهم، وذكرت أخبارًا تؤكد ما رواه المحبوسون فى أشعارهم، وما صادفوه من عذاب، فقد خرج الحجاج يومًا إلى الجامع فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا. قالوا: أهل السجن يضجون من الحر، فقال قولوا لهم اخْسَئُوا فيها ولا تكلمون، وقد وجد فى حبس الحجاج مائة ألف وأربعة عشر لف رجل، وعشرون ألف امرأة «وكان حبس الرجال والنساء فى مكان واحد، ولم يكن فى حبسه سقف ولا ظل، وربما كان الرجل يستتر بيده من الشمس فيرميه الحرس بالحجر، وكان أكثرهم مقرنين فى السلاسل، وكانوا يسقون الزعاف، ويطعمون الشعير المخلوط بالرماد»[2].

ويصف هدبة بن الخشرم السجن ومما جاء فى وصفه قوله:

فـإنـا قـد حللنـا دار بلوى ... فتخطفنـا المنـايـا أو تصيب[3]

ويريد الشاعر بدار البلوى السجن، وتبدو سمات الصورة الفنية فى وصف السجن عند هدبة فى مثل قوله:

إنّ عـدانى أن أزورك محـكـم ... متى مـا أحرك فيـه ساقى يصخب
حـديد ومرصوص مشيـد وجنـدل ... لـه شرفـات مـرقب فـوق مـرقب
يخبـرى تـراعـه بـين حَلْقـة ... أزوم إذا عضت وكبـل مضبب[4]

والشاعر هدبة يبث مشاعره الحزينة فى الأبيات الثلاثة السابقة، واستطاع أن يصور أزمته النفسية، فهو يعبر عن السبب الذى منعه من زيارة الحبيب، وهو القيد الذى يعوق حركته، وهو قيد محكم مصنوع من الحديد الموصوص، كما أن السجن له شرفات يعلوها حراس، يراقبون حركة السجناء، كما أن الحراس يقظون لا يغفلون عنه ويرقبونه. وهدبة يجمع فى الأبيات عدة مضامين طاف حولها الشعراء السجناء، وعبروا عنها فى مقطوعات كثيرة، وأفلح هدبة فى الجمع بين القيد والحبس والسجان، عاونه فى ذلك اللفظ الذى يعبر عن معنى القيد والجندل أبلغ تعبير، فاختار المفردات التى توحى بالقيد ومنها «المحكم والحديد المرصوص، والجندل المشيّد، والحلقة الأزوم، والكبل المضبب.» وكل لفظة أو تركيب لفظى كفيل بأن يعطى لصورة القيد والسجن كل ما يصبو الشاعر إلى بلوغه. وبجانب اللفظ الذى يوحى بالقيد، والتركيب الذى يعبّر عن الحبس، والصورة التى تصف السجن والسجّان، كانت تلك الموسيقى الحارة الجادة الرصينة، التى تعبر هى الأخرى عن صورة القيد والسجن، ولم يكن هدبة ينسج صوره من الخيال، أو يأتى

---

(١) محاضرات: جـ٣ ص ١٩٥.
(٢) المرجع السابق - نفس الصفحة.
(٣) شعر هدبة بن الخشرم العذرى - د. يحيى الجَبّورى - دار القلم الكويت ص ٦٠.
(٤) شعر هدبة ص ٧٦.

بألفاظ لينة لا توحى بشدة الحبس وضراوته، حتى جمع فى تصويره للسجن والسجّان بين قسوة المعنى وشدة اللفظ وخشونة الجرس الموسيقى، مما وفّر لتعبيره معظم عناصر التصوير الفنى الملائم لصورة السجن.

وكان هدبة أبلغ من غيره فى تصويره للسجن، ولعل تلك البلاغة ترجع إلى طبيعة المحنة التى ألقت به فى غياهب السجن، وترجع إلى طبيعة الشاعر المحب لحياة وللزوجة وللأهل، وترجع - أيضًا - إلى الحيرة التى لازمته فجعلته لا يعرف المصير المنتظر بين الأمل واليأس. والشعراء السجناء يصفون القيد والسجن والسجّان وقلما يجمعون بين هذه الأطر الثلاثة فى موضع واحد، فكانوا تارة يصفون القيد، وأخرى يصفون السجن، وثالثة يصفون السجان، أما هدبة فقد استطاع أن يجمع بين الثلاثة فى آنٍ واحد.

ويشتد هُدبة فى تصويره للقيد، كأن كل لفظة قيد هى الأخرى، مثلما جاء فى قوله يصف اللقاء مع زوجته، وهو فى قيوده فى حبسه:

رأتْ ساعِدَىْ غُولٍ وتحت ثيابه ... جآجِئَ يُدمى حدها والحراقف
وقد شئزت أم الصبيّين إن رأت ... أسيرًا بساقيه ندوب نواسف
فإن تنكرى صوت الحديد ومشيةً ... فإنى بما يأتى به الله عارف[1]

وألفاظ هدبة تُدْمى، حتى كأنها تأكل لحم الساق من قسوة القيد، وهدبة حين يصف قيده يذكر زوجه، فيصف جزعها لرؤية القيد، وكأنه لا يجزع بل يجعل الجزع على لسان محبيه، حتى يبقى جلدًا كما أراد لنفسه أن تكون كذلك حتى ساعة قتله.

إن وصف هدبة للسجن، وللقيد، وللسجان من أبرز مضامين شعره فى الحبس، ولعل تصوير هدبة لهذه الأمور جاء أسبق من تصويره لمشاعر أخرى، فقد أخذ الشاعر حين صدم بتلك الصورة المظلمة التى لم يكن يعرفها من قبل، فملكت صورة السجن على الشاعر حسه وعاطفته، فبدأ يصورها قبل أن يفرغ لنفسه، ليصور شوقه إلى الحرية وحنينه إلى الزوج والأهل، ليفرغ بعد ذلك إلى مرحلةأخرى أو مرحلة ثالثة من تلك المراحل، وهى مرحلة التوبة والاستغفار والإيمان بقضاء الله والرضا بقدره، فانطلقت الحكمة تجرى على لسانه، إلى أن وصل الشاعر بشعره حتى نهاية المطاف، ومواجهة المصير المحتوم، فأخرج من سجنه ليقتل وليقول شعرًا فى تلك الحال أيضًا، صور فى ذلك صلابته وجلده وتماسكه. وقد أسهمت الألفاظ فى تصوير كل مرحلة قائمة من هذه المراحل، فكانت ألفاظ صورة السجن والسجان والقيد توحى بذلك، وكانت الصور قائمة هى الأخرى تصور الظلام والقيد. وإذا ما انتقل الشاعر إلى أفكار أخرى

---

(١) شعر هدبة ١٢٨، ١٢٩.

فى حبسه كانت المفردات والتركيب والصور تتفق وتعبير الشاعر عن تلك المرحلة، من المراحل الفكرية التى مر بها شعر هدبة بن الخشرم فى الحبس.

الحنين إلى الحرية، وذكرى الزوج والأهل:

لم ينس الشاعر هدبة الحياة الحرة الكريمة فى سجنه، ولم ينس أهله وزوجه، بل عمل الحبس على تكثيف إحساس الشاعر، وازدياد الرغبة إلى الحياة والأهل والحرية، فزاد الشوق إلى الزوج، وإن كان لذلك محبا قبل أن يحبس، فقد ازداد هدبة ولهًا وتعلقًا وتشوقًا إلى ذلك كله فى حبسه، وقد يسعد الأدب بمحنة الأديب، وقد أسهم الحبس فى إذكاء شاعرية هدبة، وجعل منه شاعرًا كما قالت بعض الآراء لمعاصريه وذكرها الأصفهانى فى أغانيه. إن الإحساس بالقيد والحبس والحرمان من الحرية والحياة والأهل والأصدقاء والزوج، جعل الشاعر يخلو إلى نفسه، فيصور حنينه إلى الحرية، وذكر زوجه وأهله، ويمكن اعتبار ذلك الإطار الثانى من الأطر العاطفية التى مرّ بها شعر هدبةى الحبس، وقد كان الإطار الأول يدور حول الوصف التجريدى للقيد والحبس، فجاء هذا الإطار أكثر عاطفية وشاعرية وحسًّا أرق وتعبيرًا لا يعرف الكذب. ويتحدث هدبة عن الزوجة، ويتذكر الماضى، ويحلم بالزيارة، فتزوره، ويعطى هدبة لشعره فى تلك المرحلة أبعادًا فنية تعتمد على جناحين أساسين هما جمال الفكرة وحساسية اللفظيةالتى تصاغ فيها الفكرة، مستعينًا بالصورة الموحية. ويعدّ الحنين إلى الحرية وتذكّر الأهل والدِّيار من أبرع مضامين شعر الحبس عند هدبة، لأن هذا المضمون يتسم بالوجدانية، والشاعر دومًا شديد الحنيلزوجه ولديار أهله، دائم الذكرى لذلك كله، فهو غريب كُتبتْ عليه الغُربة والحرمان، وليس أمامه غير ذكريات ماضيه الجميلة، فيمدّ يده فى جعبة الماضى ويخرج منها ما يجدد الشوق، ويُحيى الشعور، لعله بهذا ينسى أو يحاول التسلى فى محنته. وهُدبة يتذكر زوجته فى حبسه، ويظل ذاكرًا لها حتى حين مقتله، فيقول عند دخوله الحبس:

ولما دخلت السجن يا أم مالك ذكرتك والأطراف فى حلق سمر
وعند سعيد غير أن لم أبح به ذكرتك أن الأمر يذكر بالأمر[1]

وسئل هدبة عن قوله هذا، فقال: «لما رأيت نفر سعيد، وكان حسن الثغر جدًّا، ذكرت به ثغرها»[2]. ويستعيد ذكرى الحب، وهو فى حبسه، فيقول فى هذا المعنى:

تذكرت حبًّا كان فى ميعة الصبا ووجدًا بها بعد المشيب معقبا
إذا كان ينساها تردد حبها فيالك قد غنى الفؤاد وعذبا

(١) شعر هدبة/ ١٠٦ (سعيد هو سعيد بن العاصى وإلى المدينة).
(٢) المبرد الكامل - جـ٢ - ص ٣٧٥.

فـأصبح بـاقى الـود بينى وبينهـا رجـاء عـلى يـأس وظنـا مغيّبـا[1]

وغزل هدبة فى الحبس غزل البداة التقليديين، تفوح منه رائحة العفة والطهر، ويقوم على الذكرى، يجمع فيه بين حديث النفس والبوح بما فى داخله، ليخفف عن نفسهوطأة الأزمة، والشاعر عندما يحرم الحرية «يحن إلى قيم مظاهر استقرت فى خاطره منذ أن كان صغيرًا، فيناجى همومه، ويجتر ذكرياته، ويبدى الحنين إلى الديار والقفار والأودية والمنازل»[2].

ويبدو أن لقاء هدبة بزوجه فى السجن كان أمرًا غير عادى، ويبدو أنه تم فى أيام الشاعر الأخيرة وقبيل قتله، وكان أصحاب السجن يحققون للسجين قبل قتله رغبته التى يحلم بها وكانت لقاء الزوجة. ويف ارتياع الزوجة لسوء حاله، فيقول مصوّرا ذلك:

وأدنيتنى حتى أذا ما جعلتنى لدى الخصر أو أدنى استقلّك راجف
فإن شئت والله انصرفت وإننى من أن لا تدنينى بعد هذا لخائف
رأت ساعدى غول وتحت ثيابه جآجىء يدمى حدها وقراقف[3]

وتشكل صورة الطيف ملمحًا من ملامح صورة المرأة فى سجن هدبة، والطيف يعرض فقدان المحبوب، والشاعر يشتاق إلى اللقاء، ويرغب فيه ويحلم بصاحبته، ويتمنى الاجتماع بها ويأمل أن يراها فى أحلام نومه، فيزوره طيفها من أرض أهلها فى غُضبان[4].

والعجيب فى شعر هدبة فى سجنه عن المرأة، أنه يسلّيها ويواسيها وكأنما كان الشاعر أقوى منها، فيأمل ألا تجزع لموته، ويوصيها وصية المحب الغيور، الذى يأنف أن يعقبه على زوجته غيره فيقول لها موصيًا:

أقلى على اللوم يا أم بوزعا ولا تجزعى مما أصاب فأوجعا
فأوصيك إن فارقتنى أم عامر وبعض الوصايا فى أماكن تنفعا
ولا تنكحى إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا
من القوم ذا لونين وسع بطنه ولكن أذيا حلمه ما توسعا[5]

---

(١) شعر هدبة/ ٦٥.
(٢) د. الشكعة رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية عالم الكتب بيروت ١٩٧٩ ص ٣٢٢.
(٣) شعر هدبة/ ١٢٨.
(٤) يراجع كتابنا صورة المرأة فى الشعر العباسى - ط دار المعارف ١٩٨٣ الفصل الخاص بطيف الخيال.
(٥) شعر هدبة ١١٣ - ١١٧ (الفحم أسيل الشعر) النزع: انحسار مقدم شعر الرأس، أذيا: شديد الأذى ضعيف الصدر.

ويتذكر هدبة زوجه فى حبسه، ويصف تباريح الهوى فى فؤاده، ويعترف بأنه لم يحب غيرها.

وقد جمع هدبة فى غزله فى الحبس كل سمات الغزل العذرى البدوى فى النقاء والصفاء والوفاء، وأعاد إلى الغزل الجاهى العفيف سابق سيرته الأولى، فأتى بالصور من البادية، وجاءت الألفاظ بعيدة عن الليونة والركاكة، فكانت عاطفته عاطفة الرجال الأقوياء المخلصين، المؤمنين بالتغرد فى الحب، فلا يستبدل بالعاشقة بديلاً، ويظل هدبة يذكر زوجه فى محنته، ويحلم بها ويتخيلها، ويقرنها بصورة الحارس الذى يسبّه ويغضبه، ويتتبع حركته ويرقبه، فيربط بين ذكرى الزوجة وصورة الحارس فى قوله:

لعمرى لئن أمسيت فى السجن عانيًا ... على رقيب حارس متقوّف
إذا سبنى أغضيتُ بعد حمية ... وقد يصبر المرء الكريم فيعرف
لقد كنت صعبًا ما ترام مقادتى ... إذا معشر سيمُوا الهوان فأحنقوا

وهدبة فى تصويره للمرأة فى الحبس من أنصار الانفرم وعدم تعدد الحبيبات، فإن خلقه يتنافى مع التعدد، وإذا كانت ثمة أسماء مختلفة أو كنى متعددة فهى جميعها لواحدة فقط هى زوجة هدبة العذرى. وألفاظ لوحة المرأة تغلب عليها البداوة، ومنها «رداح» وهى المرأة الممتلئة وكان العرب يفضلونها كما جاء فى شعر الجاهليين، وكذلك «المرط» و «الوشاح» والمرط كساء من صوف أو قزٍّ يؤتزر به، والوشاح من حلى النساء المتخذ من لؤلؤ وجوهر معطوف أحدهما على الآخر، تتوشح به المرأة وتشده بين عاتقيها.

كذلك الثنايا والقرقف والشمول والمسك وجون المناكب وماء المزن، والحرقف والأنيقة وأعطاف القميص إلى آخر تلك الأوصاف والألفاظ التى استمدت من البادية، ومن معجم شعراء الغزل العذريين. أما عن الصور التى رسم بها هدبة المرأة فى حبسه، فهى صور بدوية هى الأخرى، تقوم على التشبيه، وتتجنب الاستعارات الملغزة، وتتجافى عن المجاز الذى يحتاج إلى جهد فكرى فى تأويله، وهى صور بسيطة مألوفة قريبة من متناول خيال الشاعر ويد معاصريه ومنها قوله:

ومنشق أعطاف قميص كأنه ... صقيل بدا من خلة الجفر مرهف[1]

ويعطى هدبة لحديثه عن المرأة شكل القصيدة التقليدى، يبدؤها بالوقوف على الطلل، ويتعرف على ديار المحبوبة، وينسب الشوق إلى صاحبته، ولا يجعل هواه مباحاً فلا يتحدث عن الحبيب المجهول، بل يربط الذكرى والشوق بالزوجة التى حرم منها، ويستعيد الشاعر ذكرياته معها، وهى ذكريات تتسم بالصراحة والواقعية، وهو أحيانًا يغضب معها، ويعاتبها ثم يسترضيها،

(١) شعر هدبة / ص ١٢٢.

فيعود الصفو أقوى مما كان عليه. وهدبة فى حديثه مع المرأة حديث الذكريات التى تنسيه عذاب الحبس وخشونة القيد وغلظة الحارس. يقول هدبة:

أتنكر رسم الدار أم أنت عارف ألا لا بل العرفان فالدمع ذارف

إلى أن يقول:

إذا نزوات الحب أحدثن بيننا عتابًا تراضينا وعادتِ العواطف
وكل حديث النفس ما لم ألاقها رجيعٌ ومما حدثتك طرائف[1]

ويفتتح هدبة قصيدة له أخرى بما كان الجاهليون يستفتحون به قصائدهم عادة، ويذكر اسم زوجه أم عمرو فى بدايتها، مشيرًا إلى تبدل الأهل وتغير المكان:

عفا ذو الغضا من أم عمرو فأقفرا وغيره بعد البلى فتغيّرا
وُبدّل أهلاً غيرها وتبدّلتْ به بَدَلاً مبدىً سواه ومحضرا[2]

وشعر هدبة فى المرأة خلال حبسه، يأتى غالبًا على هيئة القصيدة بل المطولة أحيانًا، وقد بلغت عضها ما يربو على السبعين بيتًا، وكان هدبة يولّى مطالع قصائده هذه عناية فنة خاصة، فكان ينسج على منوال القدماء ويوّظف اللفظة الجزلة والصورة المألوفة من معالم البيئة البدوية. وكانت مطالعه توحى بالهم والحسرة، ولكنها مطالع جزلة حازت رضا القدماء، فوضعوه فى مصاف الشعراء المرموقين. وقد استغل الشاعر مكونات البادية، واستخددما فى التعبير عن عواطفه، فيطلب من الرياح أن تبلغ الزوجة المحبوة كوامن شجونه، فيقول:

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكر أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب[3]

والشاعر يطلب من ريح الشمال التى تهب من ناحية المحبوب أن تطمئنه عن أهله، ويطلب من ريح الجنوب التى تهب من ناحية نجد أن تخبر أهله بما هو فيه.

* * *

مرحلة التوبة والاستغفار:

المرحلة الثالثة من المراحل التى مرّ بها تعبير هدبة عن محنته فى حبسه هى مرحلة التوبة والاستغفار، وهى مرحلة تعد تالية لتصويره للحبس والقيد والسجان، ولتعبيره عن حبه لزوجه

---

(١) شعر هدبة / ١٢٤ - ١٣٥.
(٢) شعر هدبة ٩٢ (ذو النصف موضع، والغضا أرض فى ديار بنى كلاب).
(٣) شعر هددبة چپ - ٦٠.

وشوقه إلى أهله. وهذه المرحلة تشكّلها عدة أطر فنية، تدور حول مضامين أساسية تنحصر فى تصوير الشاعر لحالاته النفسية، التى كانت تتأرجح بين الأمل فى انفراج الكربة، وبين اليأس والقنوط وتوقع المصير المحتوم وهو القتل. وتبدو فيها بعض الملامح الفكرية، ومنها التغنى بالصبر كوسيلة للشاعر يخفف بها عن نفسه، مما يقتضى إعلانه الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاعتراف بذنبه، والتوبة منه، والاستغفار لله عما ارتكب، ويعلو ذلك كله حكمة تجرى على لسان الشاعر، تجسد التجربة، وتجسم المعاناة، وتخلص إلى رؤية خاصة بالشاعر فى الحياة والأحياء. وإذا كان لنا أن نعتبر مرحلة وصف القيد والسججخوالسجان، هى المرحلة الوصفية المباشرة، ومرحلة الحديث عن الزوجة والشوق إلى الأهل هى المرحلة العاطفية الوجدانية، فإن تلك المرحلة وهى التوبة والاستغفار والإيمان هى التى تمثل الاتجاه الإيمانى العقلانى فى شعر هدبة فى الحبس، فقد بدأ الشاعر يخاطب العقل، ويصدر الرأى عن الفكر، ويستمد الرؤية من التجربة والمعاناة الصادقة، وكذلك أكسب ذلك الاتجاهَ شعر هدبة ذيوعًا وانتشارًا لمَّا يحمله فى طياته من نفحات إيمانية تحفظ وتروى ويستشهد بها. أما عن أول تلك المضامين التى تشملها هذه المرحلة الثالثة فهو تصوير الأمل فى الفرج، ويعبر الشاعر عن هذا الأمل فى تعبير صادق ظهر فى قوله:

عسى الكربُ الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريبُ[1]
فيأمن خائف ويُفَكُّ عان ... ويأتى أهله النائى الغريب

والشاعر يطمع فى فرج الله القريب لهذا الكرب الذى أمسى فيه، حتى يشعر الخائف بالأمان ويفك المكبّل، ويرجع الغريب إلى أهله وبلده. والشاعر يصدر فى تعبيره عن تجربته الخاصة، بما يضفى على القول حرارة الصدق، فهو شاعر ليس بواعظ أو فقيه ينصح الآخرين، إنما يعبر عن حاله، وعندما ينسحب القول على تجارب الغير يحظى بالإعجاب، ويستشهد بالقول، كما هو الحال فى الإشادة بالبيتين السابقين فى معظم المصادر، وقد استشهد بالبيتين التنوخى صاحب الفرج بعد الشدّة، وقد صاغ الشاعر أبياته من التجربة، وقد أشارت أمه إلى تلك المرحلة وهى مرحلة الأمل فى انفراج الكربة، تخاطب أهل المدينة تخطب ودهم فى إكرام ذلك الأسير الغريب، الذى كان مكرما وسط أهله، فقالت:

أيا إخوتى أهل المدينة أكرموا ... أسيركم إن الأسيرَ كريمُ[2]

ويظل هدبة السجين الغريب، يتلمس الأمل ممن حوله، ويظل متماسكًا لا يعرف اليأس، فإذا كان صدر هذا اليوم وَلىّ فإن غدًا لناظره قريب.

---

(١) شعر هدبة / ٥٩، ويأتى البيت شاهدًا فى كتب النحاة على حذف إن من خبر عسى.
(٢) الأغانى ٢١ - ٢٨٨.

فـإن يـك صـدر هـذا اليـوم وَلىّ فـإن غـدا لـنـاظـره قـريب[1]

وتوزعت نفس هدبة بين الأمل والقنوط، وقد استند فى أمله على المحاولات التى يبذلها الأهل والأصدقاء، حتى يقبل ولىّ الدّم الدية، فيفرج عن هدبة، وتشفعت له القبائل، وكانت الشفاعة ظاهرة معروفة فى العصر الأموى، «فكان حشد العشيرة يجتمع ويخرج أتباع من السجن عنوة أو بالتوسط والوجاهة، وكان السجين يلوذ ببعض كبار الناس من زعماء القبائل، أو ذوى الوجاهة العلمية أو الدينية المرموقة، فيسألهم الشفاعة لدى السلطة، وكانت شفاعة بعضهم لا ترد»[2]. وفى الفرج بعد الشدة إرشادات تؤكد تحطيم أبواب السجون فى بعض فترات الحكم العربى لإخراج من فيها[3]. وكان بعض الشعراء من المحبوسين يهرب، والآخر يستعطف، والثالث يصبر على كربه فيبقى فى سجنه ينتظر مصيره المحتوم، ويقول الراغب الأصفهانى فى محاضرات الأدباء إن الكميت الشاعر الأموى قد هرب من سجن بنى أمية[4]. والحطيئة من الشعراء الذى توسلوا واستعطفوا حتى خرجوا من سجنهم، وأبياته إلى عمر بن الخطاب يستعطفه فيها معروفة:

مـاذا نقـول لأفـراخ بـذى مـرخ زُغبُ الحـواصـل لا مـاء ولا شجرُ
ألقيت كـاسبهم فى قـعـر مـظلمـة فـاغفر عليكَ سلامُ اللهِ يـا عمرُ[5]

واستطاع بعض الشعراء السجناء أن يستخدم الحكمة وبلاغة القول فى استعطاف قلب المسئول، حتى تتحقق له الحرية، وقد أشار الأصفهانى فى محاضراته إلى بعض هذه المواقف.

والشاعر هدبة لم يهرب ولم يحاول، ولم يتذلل، والمعروف أنه ذهب وسلّم نفسه، وأطلق سراح أهله، الذين أودعوا الحبس بدلاً عنه، وكان يستند فى أمله على تلك الوساطة التى بذلت من أجله كشاعر للقبيلة. وشعر هدبة ى هذه المرحلة يشير إلى بعض نظم العصر الذى عاشه «فقد دخلت فى الحياة العربية لهذا العصر نظم القودَ والقصاص والحدود مما شرعه الإسلام. فلم يكن فى العصر الجاهلى سلطان يخضع للقانون أو الشريعة، والديات أمر معروف من قبل الإسلام، وأمل الشاعر فى الحرية استند على قبول الدية، وقد زاد الشفعاء الديات إلى عشر أمثالها، يرغّبون ولى الدم فى العفو عن هدبة، فأبى إلا القود»[6].

---

(١) شعر هدبة ٦٠ والبيت فى شرح قواعد المغنى وأن يك ولناظره بالرفع.
(٢) البزرة - شعر الأسر ص١٤٣.
(٣) التنوخى - الفرج بعد الشدة ٣/ ١٣٠.
(٤) السابق جـ٣ ١٩٧.
(٥) محاضرات الأدباء ٣/ ١٨٩.
(٦) د. شوقى ضيف - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - المعارف ١٩٨١ ص٣٣٣.

وكان أهل المدينة قد رقوا لهدبة لوفائه ولشئره، ولأنه أول مسجون رأوه فى المدينة بعد زمن النبى ﷺ[1]، والشاعر فى مرحلة الوساطة يحدوه الأمل، ولم يشعر باليأس إلا بعد رفض الدية، فقال:

وبعض رجاء المرء ما ليس نائلا غناء وبعض اليأس أعفى وأروحُ[2]

وعندما يفقد الأمل يبدى فزعًا، بل يتغنى بالصبر ويستغفر عن الذنب، ويتوب إلى ربه مؤمنًا بقضائه وقدره.

ومن مضامين تلك المرحلة غير الأمل أو اليأس الصبر والإيمان والتوبة، أما ما قاله هدبة توسلًا بالصبر ليتحمل أزمته فقد جاء منه:

صبور على مكروه ما يجشم الفتى ومرّ إذا يبغى المرارة مُمْعرا
رُزينا فلم نعثر لوقعته بنا ولو كان من حىّ سوانا لأعثرا[3]

ويظل هدبه متماسكًا حتى خطابه لأمير المؤمنين، لا يتوسل إلي ، وإنما يحدثه حديث الواعى اليقظ الذى يعرف الأمر من جميع جوانبه، وإن لم يكن أمام الشاعر غير القتل فليس أمامه إلا الصبر، ويجمع هدبة كل هذه المصائر معترفًا بالجريمة عارضًا ألوان الحلول الممكنة، فيقول:

رمينا فرامينا فصادف سهمنا منية نفس فى كتاب وفى قدر
وأنت أمير المؤمنين فما لنا وراءك من معدى ولا عنك من قصر
فان تك فى أموالنا لا نضيق بها ذرعًا وإن صبر فنصبر للصبر
وإن يك قتل لا أبا لك نصطبر على القتل إنا فى الحروب ألو صبر[4]

والصبر عند هدبة صبر الشجعان الأقوياء، وهو العلاج الروحى الذى يخفف به عن نفسه سدة وقع الذنب، والشاعر يعزو ما ارتكبه إلى القضاء والقدر، وهذا يؤكد إيمانه بالقضاء والقدر، ويصور تنصل الشاعر من المسئولية، وإلقاء التبعة على القدر فهو المسئول عما حدث، فقد عزا هدبة بن الخشرم ما ارتكبه من أعمال العنف والقتل إلى القضاء والقدر، «وبذلك يجد الذريعه للتنصل من المسئولية الشخصية فى اقتراف الأخطاء، أو هو يقنع نفسه بذلك على الأقل»[5].

---

(١) شعر هدبة/ ١٦.
(٢) شعر هدبة/ ٨٨.
(٣) عن رفض الديات يراجع أنساب الأشراف للبلاذرى جـ٤ ص١٣٥، والشعر والشعراء جـ٢ ص٦٩٧، وحماسة أبى تمام ص١٦، ونوادر المخطوطات ص٥٩، ٢٦٠.
(٤) شعر هدبة ١٠٤ - ١٠٥.
(٥) البزرة - شعره ص٤٦٧.

والشعراء المحبوسون فى حاجة إلى التماس المبررات التى تخفف عنهم الإحساس بالذنب، فيؤمنون بالقدر ويتغنون به، ويجمع الجاحظ فى «المحاسن والأضداد» المنسوب إليه أقوالاً فى الصبر على الحبس[١].

ومن المضامين الفكرية غير الصبر عند هدبة الإيمان بقضاء الله وقدره، وقد ورد ذلك المعنى فى بعض شعر هدبة فى الحبس مثل قوله:

رُمينا فرامينا فصادف سهمنا منية نفس فى كتاب وفى قدر[٢]

ويجمع هدبة بين الصبر والإيمان بالقضاء والقدر فى قوله ساعة القتل:

اصْبرا اليوم فإنى صابرٌ كل حى لقضاءٍ وقدر[٣]

ويرى هدبة أن التقوى خير متاع الإنسان، فيقول:

وأن التقى خير المتاع وإنما نصيب الفتى من ماله ما تمتعا[٤]

ويرضى بقضاء الله وقدره، فيقول:

وإن يك أمر غير ذاك فإنى لراضٍ بقدر الله للحق عارف[٥]

والتوبة مرحلة النقاء حيث يتخلص الشاعر من أدران الحياة، وخلت نفسه من الحقد والانتقام، وأضحت الحقيقة واضحة جلية، والتوبة مبعثها الخوف من عقاب الله لا من عذاب الدنيا، وفى منتهى الطلب فى أشعار العرب[٦] أشعار كثيرة لشعراء ارتكبوا جرمًا فى حياتهم، وظلوا يناجون ربهم تائبين مستغفرين، ومنهم عبيد بن أيوب العنبرى، وجحدر بن معاوية العكلى، وأبى خراش الهذلى، ومالك بن الريب، ويزيد بن الصقيل العقيلى، وغيرهم كثيرون.

* * *

الحكمة عند هدبة:

التوبة موضوع بارز من موضوعات الشعر العربى، وتختلف من حالة إلى حالة، فتوبة الشاعر عن الخمر، أو عن النساء تختلف عن التوبة عن جريمة قتل، وذلك بطبيعة الحال يؤثر فى التشكيل الفنى الذى يصوغ الشاعر فيه تجربته. والتوبة مرحلة تسبق الحكمة التى يزخر بها شعر الحبس عند هدبة، والحكمة تتشكل بتجربة الشاعر وأزمته، وهى عند هدبة تنبع من تجربته

(١) الجاحظ - المحاسن والأضداد - الأولى، القاهرة ١٩٧٨، ص٣.
(٢) شعر هدبة / ١٠٦.
(٣) شعر هدبة / ١٠٧.
(٤) شعر هدبة / ١١٣.
(٥) شعر هدبة / ١٣٠.
(٦) جـ٢ / ٢٦٢.

الخاصة، فقد بدا فى حكمته ذاتيًا، يمد يده فى جعبة أزمته فيصوغ أبياتًا يمكن أن يستشهد بها فى مواقف مماثلة، ولم يكن هدبة من شعراء الحكمة المعروفين، ومع ذلك فقد صدرت بعض الحكمة عنه، قلما يعثر على مثلها عند شعراء الحكمة المعروفين. ولم تكن الحكمة عند هدبة تقوم على أساليب وعظية، ولم تتسم بالتشاؤم أو تخويف المخطىء وترهيبه، بل هى دروس عملية من الحياة، انبعثت من خبرة شاعر مارس التجربة وصاغها نظمًا، ولم تكن حكمة هدبة حكمة المعمرين، فقد قتل شابًا، ولكنها حكمة المحنونين الذين أصيبوا بمحنة قاسية حرمتهم الحرية، والحب، والحياة. والحكمة أمر ضرورى فى تجربة هدبة فى حبسه ثم قتله، وهى مرحلة فكرية متطورة لتلك المراحل التى شملها الإطار الفكرى لشعره، ولم تكن الحكمة فى شعر هدبة مقصودة لذاتها، ولم يجعل المقطوعة خاصة بها، ولم يأت بالحكمة متتالية داخل العمل الأدبى، بل جاءت متناثرة فى ثنايا أعماله الفنية، مما يعطى لها تماسكًا فنيًا، فقد كانت تؤيد الحديث الذى يصوره، وهى تختلف باختلاف تعبير الشاعر عن الموقف الذى هو بصدده. ويمكن القول أن المحنة التى وقع فيها هدبة هى التى جعلت شعر الحكمة يتفجر على لسانه، وربما لو لم تكن هذه المصيبة لخلا شعره من هذه الحكمة.

وشعر الحكمة عند هدبة فى الحبس يصور جانبًا عظيمًا من جوانب شخصية الشاعر، وهذا الجانب يبعد تمامًا عن كونه حكيمًا أو ناصحًا أو واعظًا، ولكنها تظهره مجربًا عاقلاً عالمًا بأمور الحياة يعطى خلاصة تجربته المكثفة إلى الأجيال المعاصرة له أو التالية بعده، ينصحهم ولكن ليس بالطريق المباشر. وتوزعت مضامين الحكمة فى شعر الحبس عند هدبة على ما يختص بالمحنة ذاتها ليصوغها الشاعر فى قوالب مكثفة، بعيدة عن الفلسفة والالتواء والغموض والتعقيد، وإلى ما يرتبط بالأمور الأخلاقية أو السلوكية فى الحياة، وإلى ما يصور قسمات الشاعر الذاتية، أما عن المصادر التى أمدت هدبة بهذه الحكمة فلم تكن من القرآن أو الحديث أو السنة، ولم تكن من أقوال الفلاسفة والحكماء، ولم تكن ترديدًا لبعض الأقوال المأثورة أو التعابير الجاهزة، ولكنها التجربة الخاصة والرؤية الذاتية، فكانت حكمة هدبة خلاصة تعامله فى الحياة.

وأفادت أشعار الحكمة شعر هدبة، فقد أسهمت هذه الأبيات مع قلتها بالقياس إلى شعر الحبس فى ذيوع شعر هدبة وانتشاره، فقد صارت أقوالاً سائدة، وقد ينتزع البيت وتترك القصيدة كلها، لأن بيت الحكمة يجسد تجربة، ويمكن أن يُتمثل به فى تجارب مماثلة. وقد تتفق أقوال هدبة فى الحكمة فى بعض جوانبها مع بعض أقوال الفلاسفة والحكماء اتفاق مفكر وأديب مجرب، لا اتفاق ناقل أو متعلم. ويلخص هدبة تجربته فى الحياة فى بيتين صارا من أشهر أقواله فى الحكمة وقد استشهدت بهما معظم مصادر الأدب، وهما:

ولست بمفـراح إذا الـدهـر سـرّنى ولا جـازعٍ مـن صـرفـه المتـقلبِ
ولا أتمنى الـشـر والـشـر تـاركـى ولكن متى أحمل على الشر أركبِ[1]

وتتضح شخصية هدبة فى بعض جوانبها من خلال البيتين السابقين، فهو لا يفرح إذا سره الدهر ولا يجزع إذا أصابه بسوء، ولا يتمنى الشر ولكنه إذا اضطر إليه فلا مفر منـه. وهى أخلاقيات تصور شخصية بدوى صلب وفيها الكثير من مُثل الجاهلية. والبيتان قالهما هدبـة ارتجالاً، وتلك سمة من سمات شعر هدبة، دفعه إلى قولهـا حرارة المـوقف، فكان التـركيز والتكثيف، والبيتان خاليان تمامًا من أى لون من ألوان التعقيد، فالألفاظ واضحة يسيرة تختلف عن نوعية الألفاظ التى كان يصوغ هدبة منها شعره فى وصف الرحلة، أو فى وصف الناقة، فقد كان يغلب عليه اختيار ألفاظ البداوة، أما فى الحكمة فلا حاجة للقارىء لمعاجم اللغة، بل يقولها الشاعر سهلة يسيرة، حتى تؤدى وظيفتها فى الذيوع والتـذوق. وأضحى الحكماء والمؤدبـون يؤدبون الناشئة على حكمة هدبة أو بعضها، فنرى أبا على القالى فى أماليه يوجه القول إلى الابن ناصحًا إياه مستشهدًا بحكمة هدبة، فيقول القالى[1]: «أى بنى، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال: أحببْ حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما، وكن كما قال هدبة بن الخشوم:

وكن معقـلا للحكم واصفح عن الخنـا فـإنـك راء مـا حـييـت وسـامـع
وأحبب إذا أحببـت حبًّـا مـقـاربـا فـإنـك لا تـدرى متى أنت نـازع
وأبغض إذا أبغضت بغضًـا مقـاربـا فـإنك لا تـدرى متى أنت راجـع[2]

ويروى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء قولاً للقاضى أبى الحسين فى كتابه «كان بعض إخوانى يتمثل كثيرًا ببيت لهدبة وهو:

عسى الكـرب الـذى أمسيت فيـه يـكـون وراءه فـرج قـريـب

هذه نماذج من شعر الحكمة فى حبس هدبة، النموذج الأول يصور بعض صفات الشاعر الذى لا يفرح ولا يجزع، والثانى يطلب بالتمسك بالحلم وعدم الإفراط فى الحب أو البغض، والثالث يدور حول الفرج بعد الشدة.

والنماذج جميعها مستقاة من تجربة الشاعر الخاصة، استطاع فيها أن يصور المراحل النفسية

---

(١) شعر هدبة ٧٤/ ٧٥.

(٢) التالى: أبو على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى «كتاب الأمالى - لجنة إحياء التراث العربى - دار الجيل - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٧ جـ٢ ص٢٠٤.

(٣) السابق جـ٢ ص٢٠٤.

التى مر بها فى الحبس، فهو تارة يعيش على الأمل، وأخرى يعترف بالذنب، وثالثة تظهر حقيقة الأمور أمامه، وتنساب الحكمة على لسان هدبة تصور كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث.

وتركيب العبارة فى شعر الحكمة عند هدبة فى الحبس، يتفق والهدف الذى من أجله نظمت الأشعار، فتكون الجملة شرطية أو منسوخة، وتتعلق النتائج بالمقدمات دون إضافات، وفيها سهولة اللفظ وليونته مع عدم هبوطه إلى الإسفاف والابتذال. وكذلك كانت الصور فى حكمة هدبة قليلة بل نادرة، مستمدة من واقع التجربة، وواضحة لا التواء فيها، مثل ركوب الشر، والطباق بين الفرح والجزع، وبين الكرب والفرج، وبين الأمن والخوف، والقيد والفك، وكلها تدور فى قالب الطباق البسيط. وقد أكثر الشاعر فى الحكمة من الطباق، ليصور تناقض مواقف الحياة من حوله، فقد تبدل به الحال من الأمن إلى الخوف ومن الحرية إلى الحبس، حتى أضحى الطباق من أوضح مظاهر البديع فى حكمة هدبة.

وقد قدَّم هدبة الحكمة حين صاغها من تجربته وقدمها جاهزة للغير، حتى لا يقع غيره فيما وقع فيه، وقد صاغ هدبة الحكمة فى عبارات بسيطة تتفق والفكرة، وضمنها ألفاظًا تلائم ذلك اللون، متجنبًا التصوير أو الخيال، بعيدًا عن التصنع الفنى، تاركًا نفسه الفنية على سجيتها فى تعبيرها، حتى يستكمل ذلك الإطار الفكرى فى تعبير الشاعر عن محنته.

وتتبلور وصية هدبة حين قتله إلى زوجته، التى كان يحبها، ويغار عليها، وكان هدبة يحب والديه أيضًا، وقد حضرا ساعة قتله، وهدبة يخاطب والديه حين سيق إلى الموت، فيقول لهما:

أبليانى اليوم صبرًا منكما ... إن حزنًا منكما عاجل ضر
لا أرى ذا الموت إلا هينا ... إن بعد الموت دار المستقر
أصبرا اليوم فإنى صابر ... كل حى لقضاء وقدر[1]

وقد تسابقت مصادر الأدب فى حفظ الأبيات السابقة، فرواها صاحب الأغانى، وصاحب أسماء المغتالين، وصاحب تزيين الأسواق، وصاحب الخزانة، وكذلك فى شرح شعر المغنى، وفى نزهة الأبصار، كما أتى بها صاحب شعراء النصرانية.

والأبيات تمثل إيمان شاعر وصموده ساعة قتله، وعاطفة الشفقة على والديه أكثر من خوفه على نفسه، فقد قتل هدبة شابًّا ووالديه أحياء ينظرون إليه، والسيف أوشك أن يطيح برأسه، فأراد الشاعر أن يخفف من هول المصيبة عليهما، فهو يساق إلى الموت بين الأب والأم والزوجة

---

(١) البغدادى (عبد القادر بن عمر البغدادى) - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب دار صادر - بيروت - المجلد الرابع ص٣٩٧.

الوهلى، فيطلب الشاعر منهم الصبر، فكل حى مصيره إلى الموت مهما طال به الزمن، ويهون من وقع الموت على نفسه فيراه هينًا، ليهوّن من وقع المصيبة على والديه وزوجته.

* * *

أما المضمون التالى فهو رثاء النفس:

وهو من الموضوعات الجديرة بالبحث أيضًا، فهو رثاء يختلف عن الرثاء المعروف عند الشعراء، حيث يرثى الشاعر ذاته عندما يحس بقرب الموت، وهو لون معروف منذ الجاهلية، فقد رثى امرؤ القيس نفسه حين شعر دنو أجله فى عودته من رحلته إلى القيصر، ومن الشعراء المشهورين برثاء النفس مالك بن الريب التميمى، ويقال: إن أول من رثى نفسه «يزيد بن حذاق العبدى»[1] وجاء فى رثائه لنفسه:

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حِمام الموت من راق
وأرسلوا فتية من خيرهم نسبا ... ليسندوا فى ضريح الترب أطباقى[2]

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم «أبو عامر بن شهيد الأندلسى» وكان مريضًا فبكى نفسه ورثى حياته، وعادة حين يصاب الشعراء الفرسان فى الحرب بجرح نافذ يرثون أنفسهم كما فعل مالك بن الريب، ومن الشعراء من يرثون الأعضاء، فرثى عبد الله بن سرة الجرشى يده، والشاعر الخريمى يرثى عينيه عندما أصيب بالعمى. ورثاء النفس عند هدبة كان ينبع من إحساسه القوى بقرب نهايته، وانفعاله الحاد بمفارقة الحياة والأحباب، ويقوم رثاء الذات عنده على شفقته على نفسه، فهو رثاء شخصى ينبع من إحساسه، واسترجاع الذكريات، ورؤية الأحباب أمام عينيه، وشبابه وقوته، وقد رثى هدبة نفسه فى قوله:

ألا عللانى قبل نوح النوائح ... وقبل اطلاع النفس بين الجوانح
وقبل غد يالهف نفسى على غد ... إذا راح أصحابى ولست برائح
إذا راح أصحابى بفيض دموعهم ... وغودرت فى لحد على صفائحى
يقولون هل أصلحتم لأخيكم ... وما الرمس إلا فى الأرض الثراء بصالح
يقولون لا تبعدوهم يدفنون ... وليس مكان البعد إلا ضرائحى[3]

---

(١) أبو هلال العسكرى - الأوائل - ت: د. محمد السيد والوكيل - دار البشير المنصورة، مصر - الأولى ١٩٨٧ ص ٤٤٠.

(٢) المصدر السابق - ص ٤٤٠.

(٣) شعر هدبة ص ٨٩.

وقد أورد الجرجانى فى وساطته مثل هذا البيت الأخير لمالك بن الريبّ فى رثاء النفس وهو:

يقـولـون لا تبعـدوهم يـدفنـونى ... وليس مكـان البعـد إلا مكـانيـا[1]

ومقطوعة هدبة من خير ما رثى به الشعراء أنفسهم، فقد أفرغ الشاعر ذاته لذاته، واستهلها مصرعا، وأفرد لها مقطوعة خاصة، ولم يجعل رثاء النفس غرضًا فرعيًّا من أغراض قصيدة له، واتفقت المقدمة مع موضوع القصيدة، فهى مقدمة من مقدمات رثاء النفس، مقدمة حزينة تقوم على نوح النوائح، حين تطلع النفس من الجوانح، ويصور ذهاب الأصحاب عنه، وتركه فى قبره وحيدًا، والأصحاب يبكون، وتفيض الدموع حزنًا لفراقه، وهو فى لحده بين الصفائح، كما يحدد الشاعر طبيعة الأرض التى يمكن أن تكون صالحة لقبره وهى أرض ليست بأرض قواء، لأن القبر فى الأرض القواء غير صالح، والأرض القواء هى الأرض التى لم تمطَر بين أرضين ممطورتين، وكم يتمنى الأصحاب ألا ليبعد عنهم أثناء دفنهم له، ولكن هيهات أن يصير ذلك فهو ملاق ربه عما قريب.

إن إحساس الشاعر بفقدان نفسه، جعله يختار ألفاظًا تصور النوح وتجسد الوداع وتعبر عن الحزن، وتفجر طاقات هائلة من العواطف الحارة بعيدًا عن المجاز والخيال، ولا تصلح إلا للغرض الذى كان الشاعر بصدده يصور رثاء الذات.

والموسيقى فى هذه اللوحة الحزينة تعزف لحن الوداع فى نغم جنائزى، كان يرنُّ فى أذن الشاعر حين تخيل فراق الحياة والأحباب وانتقاله إلىّ العالم الأبدى، كما خلت اللوحة من التصوير فلم يكن له مجالٌ، إنه يعبر عن نفسه ويرضى ذاته، بينما اشتملت اللوحة الحزينة على الطباق الذى يقوم على التناقض بين الحياة والموت والرحيل والبقاء، فجاءت المقطوعة مؤثرة بليغة تعد من أروع أعماله الفنية فى الصدق والثراء الفنى وحرارة التعبير الصادق.

ويستشهد الجاحظ على أن «هدبة هذا كان من شياطين عذرة وهذا شعره كما ترى، وقد أمر بضرب عنقه وشد خناقه، وقليلًا ما ترى مثل هذا الشعر عند مثل هذه الحال، لناهيك به مطلقًا غير موثق، وادعًا غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار»[2].

والمحنة لها ضغطها وتأثيرها، مما له أوقع الأثر فى صياغة الفكرة وتشكيلها، وروت بعض مصادر الأدب أن هدبة حين ذهب به ليقتل، انقطع قبال نعله، فجلس يصلحه، فقيل له: اتصلحه وأنت على مثل هذه الحال، فقال:

أشـد قبـال نعـلى أن يـرانى ... عـدوى للحـوادث مُسْتكينـا[3]

---

(١) الجرجانى - الوساطة - ١٩٣. (٢) الجاحظ - الحيوان - جـ٧ ص١٥٧.

(٣) أسماء المغتالين ٢٦٢ - والتذكرة الحمدونية والبرهان والرهان وغيرها.

وقال هدبة شعرًا قبل أن يقتل، وهو:

إن تقتلونى فى الحديد فإننى ... قتلت أخاكم مطلقًا لم يقيد[1]

ويروى صاحب الكامل فى اللغة قولاً لهدبة لحظة قتله حين أوصى قاتله قائلاً: «أثبت قدميك، وأحد الضربة، فإنى أيتمتك صغيرًا، وأرملت أمك شابة، ما أجزع من الموت».

ويضع صاحب الذخيرة[2] هدبة بين الشعراء الذين كان شعرهم فى الأمن والخوف سواء، وهذا يتوقف على «قدرة كل شاعر وسكون جأشه، وقوة غريزته»، ومنهم طرفة بن العبد ومرة بن محكاة السعدى، وتميم بن جميل السدوسى، وأشعارهم ساعة القتل موجودة فى الكامل والذخيرة. ومن الأفكار التى تناولتها أشعار هدبة فى هذه المرحلة، تعليل الشجاعة والتماسك والصلابة خشية شماتة الأعداء، فكان هدبة يخفى حزنه خلف ضلوعه، ويقول فى هذا المعنى:

فلم أبْدُ الذى تحنو ضلوعى ... عليه وإننى لا أنا الكئيب

مخافة أن يرانى مستكينًا ... عدو أو يساء به مريب

ويشمت كاشح ويظن أنى ... جزوع عند نائبة تنوب[3]

ويطلب هدبة من محبيه ألا يبكوا عليه حين يحين حينه:

فقلت له لا تبك عينك إنه ... يكفى ما لاقيت إذ حان موجبى[4]

* * *

سمات فنية:

هذه أهم المعانى التى احتوتها تلك المرحلة من مراحل تعبير هدبة، حيث صوّر الموقف، وجسد الرؤية ومزجها بنظرته الخاصة إلى الحياة، وأبدى صمودًا وشجاعة.

وقد وفر هدبة لشعر تلك المرحلة أدواتها الفنية الخاصة، وإن كانت محاورُ التعبير عند هدبة تدور حول المحنة إلا أن طبيعة كل جزئية فيها تختلف عن الأخرى؛ فالشعر الذى يدور حول الحبس والقيد والسجان، يختلف عن شعره ساعة القتل، ويختلف عن شعر التوبة والاعتراف. والشاعر حين صوّر الحبس والقيد والسجان، كان مأخوذًا بمرارة التجربة وقسوة الموقف،

---

(١) الأغانى ٢١/ ٢٧٢ وشعر هدبة ص ٩٠.

(٢) ابن بسام - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - ت: د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت - لبنان - الأولى ١٩٧٩ جـ٤.

(٣) شعر هدبة / ٦٢.

(٤) شعر هدبة / ٧٨.

ويقارن بين نور الحياة وظلام السجن، وبين حرية الحركة وقسوة القيد وبين معاملة الأحباب وغلظة السجان، ولكنه كان لا يزال يحيا على الأمل الذى يمكن أن يحقق لكربته انفراجًا. وكان هدبة فى الحبس يصور فى شعره حالة إنسان يترقب الموت، وكان يتظاهر بالصبر، واستطاع أن يعطى للتجربة ما يعرف بالوحدة الموضوعية، حين أحاطها بالجو النفسى المشحون بالأمل واليأس، معتمدًا على بعض الصور الحسية التى التقطها من مكونات البيئة من حوله، ولم يجنح إلى الخيال. واتسمت التجربة فى شعر هدبة فى الحبس بالإيجاز فى التعبير، فلم يسترسل فى تصوير المواقف المجحفة، فلم يستجد العطف، ولكنه كان يبدو متماسكًا، يطلب من ذويه الصبر والتحمل وعدم البكاء.

وكان هدبة - أحيانا - يفرّ من العالم الخارجى ليدخل إلى أغوار عالم النفس، فيظهر أمورًا خفية، كان بوده ألا يعرفها غيره، فهو حزين ولكنه يخشى شماتة الأعداء وهو مقبل على الموت، وكم تمنى أن تكون الحياة من نصيبه، وهو يغار على زوجته ولا يطلب منها ألا تتزوج وإن وضع لها شروطًا وعراقيل تمنعها من ذلك. واتسم تعبير هدبة بأن جاءت أبياته على هيئة ومضات خاطفة، ولكنها مكثفة ومركزة، استطاع مع قصرها أن يركز فيها، فكان ينفث همومه، ويبث أحزانه فى أفكار مركزة. كذلك اتسم تعبير هدبة بالارتجال والبداهة - أحيانًا - فلم يكن هناك الوقت الزمنى الذى يؤهله للإعداد القولى، فجاء شعره ابن اللحظة يجيب به على والديه وعلى زوجه، وعلى ابن حسان وعلى قاتله وعلى الشهود، وكان الشعر آخر أسلحته فى الحياة، يرد به على كل ما يعترضه من خواطر أو مخاوف منظورة أو متوقعة.

أما عن موسيقى الشعر فى تعبير هدبة فى هذه الحلقة الأخيرة من حلقات حياته، فجاءت متوافقة مع الموقف النفسى المأزوم، معتمدًا فى ذلك على حروف القافية التى صاغ منها أبياته، فكان حرف الباء غالبًا والراء والمفتوحة بالألف واستطاع من خلالها أن يفجر الموسيقى، التى تبعث على الحزن، أو تصور الموقف فى هدوء وبطء، كأنها لون من ألوان النواح أو التعديد ورثاء الذات. وكانت قوافيه من ذلك النوع الذى يطلق عليه الذلل وليست من النفر، أو من الحروف الرطبة على حد قول ابن عربى فى فتوحاته المكية.

وقد استطاع هدبة فى هذه المرحلة الأخيرة أن يعبر عن خواطره بعيدًا عن الحزن الكئيب الأسود، بل عبر عن شعوره فى شموخ وفى رقة، وفى جلد وفى عذوبة، فلم تهتز صورته فأضفى حزنه، وأظهر شعره مشاعره فى رقة التعبير وعذوبة الموسيقا.

على هذا يمكن القول: إن شعر هدبة فى الحبس مرّ بمراحل فنية، التزم الشاعر فى كل مرحلة بالتعبير عن مضامين معينة، مستخدمًا أدوات فنية خاصة، وكان الشاعر فى تعبيره صادقًا صدق إحساسه بالحالة التى هو بصدد تصويرها.

وهذه المراحل التعبيرية هى: مرحلة السجن والقيد والسجان - مرحلة الذكريات والتشوق والحنين - مرحلة التوبة والاستغفار والاعتراف والإيمان بالقضاء - مواجهة المصير المحتوم ورثاء النفس والوصية.

وهذه الجوانب التعبيرية من شعر هدبة فى الحبس تتوزع جميعها فى إطار فنى واحد، ينبع من المبدع الفرد ومن ذاتية الشعور وتلقائية التعبير من إنسان مأزوم حساس مرهف. ومعظم شعر هدبة قيل وهو فى الحبس، حتى إن الرواة لم يهتموا به قبل حبسه، فلم يصبح شاعرًا مشهورًا إلا بعد دخوله السجن، فقد فجرت المحنة كوامن طاقاته الإبداعية والشعورية.

* * *

ويمكن القول بناء على هذه القراءة الأدبية، التى استهدفت النظرة الإجمالية وعدم الفصل بين الشكل والمضمون، أن لكل مرحلة من مراحل تعبير هدبة سماتها الفنية الخاصة، وأنّ شعر هدبة فى الحبس على إطلاقه يتسم بسمات فنية عامة، من أهمها: تلك السمة التى تتعلق بمقدمات القصائد لشعر هدبة فى الحبس، فله خمسون قصيدة ومقطوعة قالها جميعها فى حبسه، سبع قصائد فقط هى التى وفر لها الشاعر مطالع فنية، أما بقية أعماله فقد خلت من المطالع. ويعود ذلك إلى أن هذه القصائد السبع هى من أطول أعماله الفنية التى احتفظ الرواة بها، أما بقية أشعاره فكانت تأخذ شكل المقطوعة أو البيت أو البيتين أو ثلاثة الأبيات.

ولا يعلل إهمال الشاعر للمقدمات بأنه كان «جافى النفس، غليظ القلب، عسير الطبع»[1] أو أنه كان من الخارجين على نظم القصيدة التقليدية، ولكن يعلّل ذلك بأن الشاعر كان ينظم فى موضوع جديد، لم تتأصل تقاليده بعد، كما أن الشاعر لم تتح له الفرصة للتأنى والإعداد، كما أن الحالة النفسية كانت تحركه فى المقام الأول أكثر مما يحركه استرضاء النقاد والرواة.

وهدبة فى مطالعه فى شعر الحبس بدأ شاعرًا تقليديًّا ملتزمًا يأتى بالتصريع وباللفظ الجزل والصورة البدوية، ويربط بين المقدمة والموضوع ارتباطًا وثيقًا، وهى مقدمات تقوم على النواح وعلى التذكر، وكلها مقدمات حزينة وثيقة الصلة بمأساة الشاعر.

---

(١) د. حسين عطوان - مقدمة القصيدة العربية فى العصر الأموى - المعارف، ص ٢٠٥.

ويمكن التعرف على مطالع هدبة فى شعر الحبس من خلال الإحصائية التالية:

رقم القصيدة فى الديوان	الصفحة	عدد الأبيات	أولهـا	
١	٥٧	٢٤	طربت وأنت أحيانًا طروب	وكيف وقد تعلاك المشيب
٣	٦٤	٥٤	تذكرت شجوا من شجاعة منصبا	تليدا ومنتا .ا من الشوق محلبا
١١	٨٣	٤٠	ألا عللانى والمعلل أروح	وينطق ماشاء اللسان المسرح
١٣	٨٩	٤٣	ألا عللانى قبل نوح النوائح	وقبل اطلاع النفس بين الجوانح
١٥	١٠١	٢١	ألا يالقومى للنوائب والدهر	وللمرء يدرى نفسه وهو لا يدرى
٢٩	١١١	١٧	أقلى على اللوم يا أم بوزعا	ولا تجزعى مما أصاب فأوجعا
٣٦	١٢٤	٧١	أتنكر رسم الدار أم أنت عارف	ألا لا بل العرفان فالدمع ذارف

ومطالع هدبة تمتاز ببراعة الاستهلال، أو بما أسماه البلاغيون حسن الابتداء، فقد اتفق علماء البديع على أن براعة المطلع «عبارة عن طلوع أهلة المعانى واضحة فى استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، مع اجتناب الحشو، ليس له تعلق بما بعده، وشرطوا أن يجتهد الناظم فى تناسب قسميْه، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيًّا عن شطره الثانى»[(١)]. ووافق هدبة بين مطلع القصيدة وما بنيت عليه، «مشعرًا بغرض الناظم، من غير تصريح، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها فى الذوق السليم، ويستدل بها على مقصده من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح»[(٢)].

وقد يفهم غرض القصيدة من مطلعها، وفى قصائد هدبة التزام بالأصول الفنية فى جودة المطلع وفى حسن التخلص، وفى تناسب الألفاظ مع المضمون المعبر عنه، وكذلك الصور أيضًا، فالقصيدة الواحدة تجمع بين الجزالة والبساطة وبين بداوة التعبير والتصوير لقسوة الصحراء وبين رقة التعبير للحزن والمأساة، وبين الشموخ والرجولة والتحدى، وبين الشوق للأهل والحنين للزوجة، وبين التصوير المرئى وبين التعبير غير المنظور عن كوامن الشجن. ولا يعد تعددُ الأغراض فى قصيدة هدبة الطويلة عيبًا يؤخذ عليه، ولكنه كان متوافقًا مع مراحل الشاعر الشعورية فى حبسه، فقد كان شعره فى الحبس موزعًا بين مطولات وقصائد ومقطوعات وأبيات، والمرحلة التى نظم الشاعر فيها قصائده تختلف فى طبيعة الإحساس بالأزمة، عند الشاعر، والمواقف التى قال فيها البيت أو البيتين وعندما نظم الشاعر مطولاته، ثم كان لا يزال يحدوه

(١) ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب - مكتبة الهلال - بيروت - الأولى، ١٩٨٧. ص ٢٠.

(٢) السابق ص ٢١.

الأمل فى الحياة، فاستطاع أن يفرغ لطيفه، وأن يسترجع الذكريات فى رحلاته بالصحراء وحيواناتها، وليستعيد المأساة والشوق إلى الأهل وغير ذلك، وجاء ذلك كله فى إطار فنى واحد منسجم مع الجزالة والرقة، وبين قوة التعبير وليونته.

فكان شاعرا يشعر بنبض الحال ودقة حركته، ويعبر عن الموقف ورقته.

والقصائد بالضرورة أعد الشاعر لها الإعداد الفنى اللازم، أما المقطوعات والأبيات فإنها تمتاز بالارتجال، فقد كانت المقطوعات تعبيرًا عن موقف آنى للشاعر، وطلب منه فيه أن يقول شعرًا، أو أحس بمفاجأة من حوله فنظم فيها، وكانت تمتاز بما يمتاز به الارتجال من سرعة البديهة والجواب الحاضر. وألفاظ هدبة كانت تتأرجح بين القوة والجزالة وبين السهولة والرقة، فقد كانت قوية فى معرض وصف البادية وفى معرض الفخر والتحدى، وكانت رقيقة فى تصوير حزنه وفى التعبير عن أشواقه وحنينه.

وقد التزم فى الموسيقى بما يجب الالتزام به فى القصائد الطويلة، متوسلاً بالتصريع فى المطلع وبالبحور الطويلة، وبالقافية الواحدة الرتيبة واحدة والروى، فلم يعدد فى القوافى فى العمل الواحد، ولم يخرج عن بحور الشعر العربى المعروفة، وعملت قوافيه على إعطاء الجو الموسيقى اللازم فى تصوير الموقف. أما عن الصور فكانت قليلة خاصة فى المقطوعات والأبيات، وذلك للارتجال وسرعة البديهة، وعدم التأنى فى العمل على توفير الأدوات الفنية، والصورة موجودة فى قصائده الطويلة، ولكنها ليست بالكثرة التى تلفت النظر، وتقوم جميعها على الإحساس المادى المستمدة عناصره من معالم البادية والصحراء، وقد التزم الشاعر فيها بما اتفق عليه الشعراء القدماء فى صورهم، فلم يجنح إلى الخيال ولم يغرب فى التصوير وطغى التشبيه على كل ألوان صوره، وبدت الاستعارة قليلة. وأما عن ألوان البديع فكان الطباق الحاد أزهى صوره، وقد اعتمد على التضاد بين اللفظين تضادًا مباشرًا حادًّا قويًّا: بين الظلام والنور وبين القيد والحرية، وطبيعة الموقف هى التى أملت على الشاعر أن يكثر من ذلك اللون الذى يطابق بين ما هو كائن وبين ما كان يمكن أن يكون عليه. وبطبيعة الحال فقد كان شعر هدبة فى حبسه شعرًا ذاتيًّا، بل كان حديث النفس واسترجاع الذكريات، وخلا من الأغراض التقليدية المعروفة فى شعر فى الحبس، ولم يكن الشاعر غيريًّا، فهو ليس من الشعراء المحترفين، وكان يعبر عن أزمته ولم يعبر عن أزمات الآخرين، لقد كان هدبة مشغولاً بنفسه انشغالاً عظيمًا، فبدا من شعره فى الحبس فنانًا أصيلاً يعد خير مثال للشاعر الذاتى الذى يسخر شعره فى التعبير عن عواطفه فى إحساس مرهف دقيق.

لقد أفاد الحبس شعر هدبة فى أن تصدر عنه كل هذه الأصوات لتعطى لحنًا واحدًا مميزًا يحمل بصمات الشاعر وطوابعه الخاصة، مما جعل الرواة والعلماء اللغويين يتهافتون على حفظ شعره،

حتى كان الزبير بن بكار يخص هدبة بكتاب يحمل أخبار هدبة كما ورد فى فهرست ابن النديم[1]، وكذلك فعل السكرى حين جمع شعر هدبة بن الخشرم العذرى. وكان الرواة ينشدون شعر هدبة نموذجًا للجزالة والغرابة فى بعض الأحيان، كما يروى عن أبى حيان التوحيدى حين سئل أن ينشد أبياتًا غريبة جزلة فأنشد لهدبة العذرى بعض أبياته[2]. وأسهم أصحاب معاجم البلدان فى ذيوع شعر هدبة فاستشهدوا به كثيرًا فى معجم ياقوت والبكرى وغيرهما، كما أمد شعر هدبة علماء النحو بمادة ثرية خصبة، فقد جاء ذكر شعر هدبة بصورة لافتة للنظر فى كتب النحو، ويستشهد به على صحة القاعدة وسلامة التركيب.

وقد أعطى شعر هدبة لعلماء النحو واللغة مادة طيعة استطاعوا على ضوئها أن يؤكدوا صحة النظرية.

إن شعر هدبة أشبه بروضة متعددة الأزهار تعطى لكل عاشق ما يألفه ويهواه، فقد أعطى شعر هدبة للقصاص مادة للحكاية، وأعطى للرواة ولعلماء اللغة والنحو الشاهد والدليل، وأعطى لأصحاب معاجم البلدان ما يحدد معالم المكان، وأعطى للشاعر القدوة والمثال، وللعاقل الحكمة والنصيحة، وللمأزوم الصبر والتحمل، وللناشئة النموذج فى الرجولة والجلد، وللمحب العاشق دروسًا فى الشوق والوفاء والإخلاص.

فجاء شعر هدبة فى الحبس معبرًا عن انطلاقة فى عالم فنى متسع غير محدود أو مقيد، يشع بحرية فى موجات متدفقة، تقوم على الجمال والصدق.

---

(١) الفهرست - دار المعرفة - بيروت ١٩٧٨ ص١١٧، ص١٦١.

(٢) التوحيدى - الإمتاع والمؤانسة - أحمد أمين وأحمد الزين - المكتبة العصرية بيروت - ١٩٧٣ جـ٣ ٣٠، ص٢٠٤.